

القبلة في الغرب الإسلامي

بين البعد العقدي والتوجيه الفقهي

محمد الصالحي/ باحث في التراث الإسلامي

أثار موضوع القبلة في الفترة الوسيطة جدلا كبيرا بين السلطة الدينية والسياسية، يطبعه التداخل بين العديد من الأطراف والمهتمين؛ من دعاة وولاة وفقهاء وأهل الهيئة والتعديل... وتحفل كتب الطبقات والتراجم الوسيطة، بمظاهر الخلفية الدينية والمذهبية لظاهرة الانحراف والتصويب الذي تشهده المحارب في الغرب الإسلامي، انطلاقا مما يسمى بالتشريق في علاقته بالقبلة. بينما المصادر الفقهية التزمت الصمت بخصوص هذا الجانب وأمعتت في التكنم عن ذكر تفاصيله، حتى الذين عاشوا الحدث كابن أبي زيد القيرواني¹ وتلامذته، أو من الذين عاصروا أحداث "تصحيح" المحارب في الأندلس وفي المغرب الموحد، كابن القطان وابن رشد الحفيد ومن قبلهما من فقهاء الغرب الإسلامي.

وبالرغم مما يحيل عليه مدخل التشريق من بعد مذهبي عند الشيعة الإسماعيلية، فإن أي محاولة لفهم مدلوله الشرعي لن يتم بشكل عميق، من دون ربطه بالظروف السياسية والمذهبية في إفريقية خلال الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس.

من هذا المنطلق يحق لنا التساؤل حول ما إذا كان أهل المغرب يولون الاهتمام لهذه الظاهرة كأحدى دعائم المعتقد الإسماعيلي، وإلى أي مدى استمر ذلك في تدينهم وانشغالهم الفكرية والسياسية؟ لكن، وقبل الحديث عن التشريق وإثارة أبعاده وبعض جوانبه، يجدر بنا الانفتاح على جهود المهتمين السابقين ممن بحثوا في الموضوع، وكلهم من بلاد تونس معقل التشريق ومهد المشاركة².

¹ - كانت ولادة ابن أبي زيد القيرواني سنة 310هـ أي قبل سنة من تحويل القبلة الفاطمية بنقل العاصمة من رقادة إلى المهديّة، حيث الإمام الفاطمي عبيد الله المهدي، كما عاصر أيضا ما بين ولادته ووفاته سنة 386هـ الخلفاء العبيديين، وعاش أحداث تغيير عاصمتهم من المهديّة إلى القاهرة سنة 362هـ، كما عاصر كذلك حكم بني زيري الصنهاجيين الذين خلفهم العبيديون في حكم إفريقية، غير أننا لا نجد في كتبه التي بين أيدينا إشارات تتصل بأحداث عصره بما فيها مسألة القبلة.

² - سبقت إثارة موضوع التشريق من قبل الباحثين التونسيين على الخصوص، ويتعلق الأمر بكل من:

- عمر بن حمادي، في مقاله: حول نعت الدعوة الفاطمية بالتشريق ونعت الداخلين فيها بالمشاركة، حوليات الجامعة التونسية، عدد: 39 السنة 1995. ص: 281-304.

- علي دراجي في مقاله: التشريق وآليات المواجهة السنوية في القيروان، مجلة الحياة الثقافية، العدد: 201 - مارس 2009.

ص: 48-54.

1- التشريق / الدلالة والبعث

إذا أطلق لفظ التشريق فإن الذهن ينصرف مباشرة إلى الجهة والمكان، وهو بهذا المعنى: الأخذ من ناحية الشرق، مصدر للفعل اللّازم شَرَّقَ، والمشرَّق فاعل منه، وشرق المسافر: اتجه نحو الشرق، جهة شروق الشمس. يقال: فلان يُشَرِّق والآخر يُعَرِّب، أي لا اتفاق بينهما، ومنه قول بعضهم:

سارت مُشَرِّقة وسِرْتُ مُعَرِّباً شَتَّانَ بين مُشَرِّقٍ ومُعَرِّبٍ

وهو بهذا المعنى اسم إضافي يدل على مكان من الأمكنة بإضافته إلى جهة المغرب³، وهنا سنجد أنفسنا أمام مدخل مرهون بجغرافيا محددة لا تتجاوز الرقعة المغاربية، محصور بين إفريقية والأندلس.

وكان المغاربة يسمون أهل تلمسان بالمشاركة، لأنهم من ناحية الشرق⁴ وسميت دعوتهم بالتشريق لا تباعهم رجلا من أهل المشرق⁵، وتَسَمَّى الداعية الشيعي أبو عبد الله الصنعائي (ت 298هـ) بالمشرقي لقدمه من المشرق، وهو أول من شهر أمره بالمشرقي لما دخل إفريقية، وأطلق على أتباعه من المغاربة "المشاركة"، وإذا دخل الواحد منهم في ذلك قيل تَشَرَّقَ⁶.

واجتهد الخشني في أفراد مبحث من طبقاته لظاهرة التشريق، وبوّبه بباب ذكر من شَرَّقَ ممن كان ينسب إلى علم من أهل القيروان، أحصى فيه جملة ممن تَشَرَّقَ من رجالها، وذكر أن ابن الصباغ- وهو من كبار نظار أهل السنة- قد تَشَرَّقَ من غير أن يبرر هذا السلوك⁷. ويجدثنا ابن ناجي أن أبا عبد الله المختال، وهو أحد ولاية الفاطميين بالقيروان، كان مشدداً في طلب العلماء لِيشَرِّقَهُمْ⁸، ونقرأ عند أبي بكر المالكي قول أبي الحسن علي بن محمد القابسي: "فوصل الشيخان إلى القيروان، فَتَشَرَّقَ أحدهما وَتَمَعَزَلَ الآخر"⁹، والتقابل

- بثينة الجلاصي في مقالها: التشريق مقالة أصولية عند الإسماعيلية، مجلة أصول الدين، العدد: 20 السنة 2016. ص: 231-246،

ثم أعادت نشره في الفصل الثالث من كتابها التفكير والتكفير في الفكر الأصولي، تحت عنوان: قضايا التكفير في الخطاب

الأصولي، ص: 160-182. وتذهب الأستاذة الجلاصي في مقالها هذا، إلى النظر في مفهوم التشريق من وجهة

نظر أخرى تتصل بالأخلاق، وهو ما أطلق عليه ابن عذارى التصير، وسمى أهله بالصابرة، فهو إذن من صفات المشاركة، وليس

هو التشريق نفسه- ينظر البيان المغرب 1/185- التفكير والتكفير، ص: 171.

³- العبر 6/18.

⁴- الاستقصا 6/52- 7/41.

⁵- البيان المغرب 1/186. ط. دار الغرب الإسلامي.

⁶- افتتاح الدعوة، ص: 79- الكامل لابن الأثير 8/114- معجم دوزي مادة (شرق).

⁷- طبقات علماء إفريقية للخشني، ص: 223 - 224.

⁸- معالم الإيمان 3/91- ترتيب المدارك 6/252-267.

⁹- رياض النفوس 1/520.

نفسه نجده عند القاضي عياض،¹⁰ وكأني بالأديب البغدادي الحسن بن جعفر الهاشمي (ت 554هـ) نظر إلى هذا المعنى، حين قال:¹¹

يا ذا الذي أضحي يَصُولُ ببدعةٍ وتَشِيْعُ وتَمَشْعُرُ وتَمَعْرُزُ¹²
لا تُنْكِرَنَّ تَحْنَبِلِي وتَسْنُنِي فعليهما يوم المَعَادِ مُعَوَّلِي
إن كان ذنبي حُبَّ مَذْهَبِ أَحْمَدِ فليشْهَدْ الثَّقَلَانِ أُنِّي حَنْبَلِي

وبمرور الزمن توسعت هوية مدخل التشريع خاصة مع القاضي عياض، الذي كان يعبر بلفظ المشاركة ويقصد بهم أتباع العبيديين المعتنقين لعقيدتهم¹³، وهذا التقابل نجده كذلك في قول الإمام الذهبي وابن الأثير: "وكان فيه جمع كثير؛ أهل سنة ومشاركة"¹⁴.

وحسب الإمام عياض فإن ظهور مذهب الكوفيين في دولة العبيديين "كان لموافقتهم إياهم في مسألة التفضيل، فكان فيهم القضاء والرئاسة، وتشرق قوم منهم تقمنا لمسراتهم واصطيادا لديانهم، وأخرجوا أضغانهم على المدنيين، فجزت على المالكية في تلك المدة محن..."¹⁵، وساهم في هذا الصراع؛ التباين الحاصل بين مدرستين، العراقية والحجازية. والمقصود بالكوفيين: الأحناف؛ الذين أضحي مذهبهم مذهب النخبة المواليين للعبيديين، إذ تحول أغلب الأحناف إلى المذهب الإسماعيلي؛ فقه الدولة الجديدة¹⁶، وبالمدنيين: أصحاب مالك؛ الممثلين لمذهب الأمة والعامية.

والتقمن في نص عياض، يفيد الإشراف على الشيء لأخذه والاستحواذ عليه¹⁷، ولعل أول ما يبرر هذا السلوك تهيؤهم لتولية خطة القضاء لمعتنقيه نظرا لأهمية هذا المنصب، غير أنهم سلكوا لتوليته أحسن السبل، وهي سياسة سلكها العبيديون للتضييق على العلماء والتشهير بهم، وغالبا ما تسلك مع الرعايا السنين. وكان الفقهاء في العصر العبيدي يتشرفون تشوفا إلى خطة التوثيق، لإرضاء الحكام والتقرب إليهم بقصد الحصول على مكاسب ذاتية. وتوحي نصوص بعض أدبيات المرحلة إلى أنه لا ينصب لمهمة الفتيا والقضاء

¹⁰ - ترتيب المدارك 46/6.

¹¹ - ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب 1/ 235 - شذرات الذهب 4/171.

¹² - وفي رواية: وتمعشر مشتق من عاشوراء. والتمشعر: الانتماء إلى الأشعرية. والتمعزل: اعتناق مذهب المعتزلة.

¹³ - ترتيب المدارك 292/5 - 26/6 - 56 - 70 - 265/7.

¹⁴ - سير أعلام النبلاء، 15/154 - الكامل في التاريخ 7/198، وكلاهما نقل عن معالم الإيمان 3/32 ورياض النفوس 2/338.

¹⁵ - ترتيب المدارك 26/1 - تراجم أغلبية، ص: 391.

¹⁶ - البيان المغرب 1/153 - الإسلام في المغرب الكبير من الفتح إلى وفاة ابن رشد الحفيد، ص: 179.

¹⁷ - تاج العروس، مادة (شرق).

والمشورة والتوثيق إلا من تشرّق،¹⁸ غير أننا نجد كثيرا ممن دُعي إلى ذلك ووُعد بالقضاء، لكنه حين يتشرّق يستغني عنه،¹⁹ وأغلب هؤلاء المشرّقين كما يقول الحافظ ابن عبد البر القرطبي، " لا علم عندهم بسعة القبلة، وإنما هو شيء يقع في نفوسهم"²⁰. قال شاعرهم:

تجَلَّى فقال الله ولّوا وجوهكم لوجه عليّ حين كلّ صلاة
فما استقبل البيت الحرام وإنما شعاع عليّ قبلة الصلوات

وفي كل هذه النصوص ما يفيد الانتماء إلى المذهب الشيعي والأخذ بأهم عقائده، وهو افتراض نعتقد أنه قادر على تفسير ما تشهده المحارب من انحراف، وهذا ما حدا بنا للتوقف عند ظاهرة التشريق في حدود ما توفره لنا المادة التاريخية وما تنقله لنا عن تفاصيل واقعهم المعيش.

2- التشريق في الصلاة / الظهور والاستمرار

وهو الذي من أجله سيق هذا العمل وتطمح إلى بيانه هذه الورقة، انطلاقا مما يعكسه من المعاني الدينية الخاصة. والمقصود بالتشريق في الصلاة: الانحراف والخروج عن سمت الكعبة لأهداف عقديّة، ناتجة عن صراع مذهبي بين طائفتين تختلفان في العقيدة وأصول الدين، وهما السنة والشيعة، وهي ظاهرة عقديّة قديمة مرصودة لدى بعض فقهاء المغرب والأندلس منذ افتتاح الدعوة الإسلامية بهما. ولا شك أن مصطلح التشريق أطلقه المالكية على معتنقي المذهب الشيعي، لميلهم إلى ناحية المشرق، وذلك لاعتقادهم بما وقع فيه أهل السنة من انحراف عن القبلة عندما شيّدوا مساجدهم على أرض المغرب.²¹

وفي المقابل وبالرؤية نفسها نظر علي الكركي، الذي كان يطعن في المساجد التي شيدها أهل السنة ويدعو إلى تصحيح قبلتها، وهو الذي " أفى بأن القبلة في المساجد التي بنيت في إيران منحرفة ويجب أن تهدم وتبنى من جديد، وقال بأن الذي حدد القبلة بها هم السنيون وأنهم تعمدوا انحرافها"²².

وبالرجوع إلى المصادر الوسيطية خاصة كتب التراجم والطبقات، نجد إشارات متناثرة نعتبرها مؤشرات قوية على حضور هوية جديدة في تدوين مسلمي الغرب الإسلامي، تقتحم أهم شعائهم الدينية التي هي الصلاة.

¹⁸ - رياض النفوس 56/2.

¹⁹ - طبقات علماء إفريقية، ص: 223 - 226.

²⁰ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد 6 / 492.

²¹ - التشريق وآليات المواجهة السنية في القيروان، ص: 48.

²² - ولاية الفقيه وإشكالية السلطة السياسية في الفقه الشيعي، ص: 131.

لقد ساق الحافظ أبو الوليد ابن الفرضي في ترجمته لأحد علماء قرطبة، وهو أبو عبد الله محمد ابن حمدون الخولاني، المعروف بابن الإمام (305هـ-380هـ) عبارة موحية بالتهمة والنقصان، حين أشار إلى أن صاحب الترجمة كان مولعا بالتشريق في صلاته لا يتسّر بذلك.²³ وذكر الخشني في ترجمة ابن حيان أنه كان يسكن سوسة، وهو صاحب صلاتها²⁴ وقد تشرّق، فكان بذلك مستترا.²⁵ وقال أحمد بن عبد البر القرطبي (ت463هـ) في حق أبي عبيدة مسلم بن أحمد البنسي، ت295هـ: كان مولعا بالتشريق في قبلته مفتونا بذلك، فلذلك يقال له صاحب القبلة²⁶، وهو الذي خاطبه الشاعر ابن عبد ربه القرطبي (ت328هـ) بقصيدة ينتقد فيها رأيه في تصويب قبلة قرطبة²⁷.

وكان المعز لدين الله الفاطمي؛ الخليفة العبيدي الرابع بإفريقية (319-362) يحمل الناس على التشريق في الصلاة، وهو الذي عمل على تحريف قبلة مسجد القيروان وتحويل محرابه سنة 345هـ،²⁸ وذلك بعدما تحولت القبلة الفاطمية سنة 309هـ بنقل العاصمة من رقادة إلى المهديّة "دار الهجرة" حيث الإمام الفاطمي عبيد الله المهدي²⁹.

لقد عظمت بأرض الغربِ دارٌ بها الصَّلوات تُقبَلُ والصِّيَامُ
هي المَهديّة الحَرَمُ المَوْقَى كما يتهاَمَةُ البَلدُ الحَرَامُ
كأنَّ مَقامَ إبراهيمَ فيه تَرى قَدَمَيْكَ إنْ عُدِمَ المَقامُ³⁰

وعادة ما يرد مصطلح التشريق في كتابات المالكية ملازما للكفر ومروفا عن الإسلام³¹، محاطا بالتقية والسرية³². وجرى بحضرة أبي الحسن القابسي (324-403) ذكّر المشاركة وأنهم يكتمون كفرهم ويسرّون،

²³ - تاريخ علماء الأندلس 125/2.

²⁴ - لقب صاحب الصلاة له مفاهيم معينة عند أهل الأندلس على الخصوص، ضمن الخطط الدينية، ويطلق في عرفهم على الشخص الذي يؤم الناس في صلاتهم، لئلا يلتبس بالإمام الحاكم أو المعصوم. ومثله المتولي لوظائف أخرى كصاحب العلامة وصاحب الوثائق وصاحب الرسائل وصاحب السوق وصاحب الشرطة..

²⁵ - طبقات علماء إفريقية، ص: 223.

²⁶ - تاريخ علماء الأندلس 125/2.

²⁷ - ديوان ابن عبد ربه، ص: 138-139 - طبقات الأمم، ص: 64-65.

²⁸ - الاستبصار في عجائب الأمصار، ص: 114.

²⁹ - ذكر ابن عذاري أن أحمد البلوي النحاس، كان يصلي إلى رقادة أيام كون عبيد الله بها، وهي منه في المغرب، فلما انتقل عبيد الله إلى المهديّة وهي منه إلى المشرق صلى إليها، وكان يقول: لست ممن يعبد من لا يُرى.

وقال أيضا: .. أظهروا الخلاف وقدموا على أنفسهم حدثا يعرف بالمارطي، واسمه كادوا بن معارك، وجعلوه قبلة يصلون إليه وزعموا أنه المهدي المنتظر - البيان المغرب 1/201-191 ط. دار الغرب الإسلامي.

³⁰ - البيان المغرب 1/184 ط. كولان وبروفنصال.

وجرى ذكر قبول توبتهم،³³ ولذلك أفتى الفقيه المالكي أحمد بن نصر الداودي (ت 402هـ) بوجوب المهجرة من القيروان بسبب كفر حكامها من المشاركة³⁴، وذكر أبو بكر المالكي أن أحد قضاة القيروان في عصره، أمر ألا يتصدى للفتوى وتحرير الوثائق إلا من تَشَرَّقَ وكفر، وأمر أن يزال من الحصون والمساجد اسم الذي بناها من السلاطين ويكتب اسم المهدي³⁵. وطبقا لهذا، جرى تصوير المشاركة على أنهم أهل الكفر والإلحاد، وهذا يبرز حدة التوتر والعداوة بين طرفين متنافرين يختلفان في الخلفيات، كل منهما يسعى إلى إساءة سمعة الآخر وتقويض مرجعياته.

3- التشريق بين السرية والعلن

فكرة الإخفاء والتستر، من المبادئ التي توسعت المذاهب الشيعية في استخدامها من أجل حفظ مقاصدهم الدينية والدينية، فكانت دعوتهم تتميز باتخاذ الحيلة والحذر، وتحاط بالسرية التامة بين أتباعها الذين كانوا يقسمون بعدم البوح بأسرارهم لغيرهم³⁶. وفي إفريقية مهد التشريق، كان الداعي الشيعي الحسين بن أحمد الصنعاني (ت 298هـ) كلما "شرع شريعة غير شريعة الإسلام، وسن سنة غير سنة محمد صلى الله عليه وسلم، كتبها وأسرَّ أمرها، وأخذ العهود والمواثيق على من أطلعه عليها في كتمانها وترك التفوه بها وما يدل عليها"³⁷. وروي في إحدى مجالس أبي الحسن القابسي ذكر المشاركة والمقصود بهم الشيعة، وأنهم يكتُمون كفرهم ويسرونه،³⁸ وذكر الخشني أن ابن حيان إمام مسجد سوسة، قد تشرَّق، فكان بذلك مستترا³⁹ حتى لا يطعن في إمامته، على اعتبار أن التشريق من أكبر التهم التي تُخَدَش في إيمان المرء ومروءته⁴⁰.

³¹ - رياض النفوس 520/1.

³² - طبقات الخشني، ص: 78.

³³ - إلى أن قال: وما علمت أنه ما سلم منهم في أيام أبي زيد أحد إلا زكرياء ثم عاد إلى التشريق بعد مدة، قيل له وكيف سلم

في أيام أبي زيد؟ قال: أكرهه ولا أدري كيف كان حقيقة إكراهه - فتاوى أبي الحسن القابسي 427/2 - المعيار المعرب 527/2.

³⁴ - ترتيب المدارك 103/7.

³⁵ - رياض النفوس 56/2.

³⁶ - الخطط للمقرئبي 230/2.

³⁷ - افتتاح الدعوة، ص: 189.

³⁸ - فتاوى أبي الحسن القابسي 427/2 - المعيار المعرب 527/2.

³⁹ - طبقات علماء إفريقية، ص: 223.

⁴⁰ - المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص: 65.

وتوحي عبارة ابن عذاري في معرض حديثه عن أحداث سنة 309هـ تاريخ تحويل القبلة في إفريقية نحو المهديّة، أن التشريق كان يمارس في الخفاء قبل أن يظهر إلى العلن. وفي ذلك يقول: "أمر عبيد الله بحبس مائتي رجل أظهروا التشريق بالقيروان".⁴¹ وفي السنة نفسها أظهر "منيب" بن سليمان المكناسي، الداعي إلى التشريق بجانب تيهرت، وقيل إن عبيد الله أمره بإظهار التشريق، فإن وجدوا الناس محتملين له ومغضين عليه نشره عند العامة وأظهروه⁴².

وكان أبو عبد الله الخولاني (ت 380هـ) ممن مارس التشريق من غير أن يخشى المتابعة والملاحقة، وقد أشار الحافظ ابن الفرضي إلى أنه كان مولعا بالتشريق في صلاته ولا يتستر بذلك⁴³.

وللكتمان عند الموحدين أهمية كبيرة، ولذلك اعتبروه من الاستراتيجيات وعملوا بموجبه في أمورهم. وإذا كان المهدي الموحدي قد ارتضى لنفسه لقب الفاطمي كما في إحدى رسائله⁴⁴، فإنه من غير شك سيقسم مع هذه المرجعية أفكارها، ويقتفي أثر المنتسبين إليها، غير أنه لم يعلن عن ذلك صراحة. وكان الشاعر الموحدي ميمون بن خبازة قد سخر من المهدي الموحدي واتهمه بعدم الجهر بحقيقة دعوته التي يضمها حين قال في حقه:

فَأَسْرَ حَسَنًا فِي ارْتِعَاءِ بَيْتِي بِمِحَالِهِ نَسَجًا عَلَى مَنَوَالِهَا⁴⁵

ولعل من مظاهر تحقّيه؛ التستر على تشريقه في الصلاة كما نص عليه البيدق وهو صاحبه وأحد منفي مشروعته. ومن هذه المظاهر كذلك؛ فكرة إخفاء خبر وفاته، التي جاءت بعد هزيمته في وقعة البحيرة، غير أن أتباعه لم يعلنوا عنها إلا بعد عدة سنين من وفاته، ولعله لذلك سميت البيعة الأولى لعبد المومن ببيعة السر.

4- أثر العقيدة في توجيه المحارب بالأندلس

نحن إذن أمام ظاهرة عمت بها البلوى، إذ لا يكاد عصر من العصور في الأقطار الإسلامية يخلو من مراجعات ومناظرات حولها. ومما ثبت في التاريخ أن الخليفة الأموي بالأندلس، الحكم بن عبد الرحمن المستنصر (350-365) ومن معه من فقهاء عصره، حاولوا "تصحيح" محرابي جامعي قرطبة وغرناطة، لكنهم لم يفلحوا في ذلك بعد أن صرفتهم عن ذلك عامة الناس، لاستعظامهم مخالفة ما جرى به العمل عند

⁴¹ - البيان المغرب ط. كولان وپروفنصال 185/1

⁴² - نفسه 185/1.

⁴³ - تاريخ علماء الأندلس 125/2.

⁴⁴ - المهدي بن تومرت لعبد المجيد النجار، ص: 244.

⁴⁵ - من أمثال العرب التي أوردها الميداني في مجمعه، ويقال لمن أخفى أمرا ولم يجهر بحقيقته. والبيت أورده المقرئ في أزهار الرياض 379/2.

الأسلاف⁴⁶، ووافقهم في ذلك العلامة قاضي قرطبة؛ أبو بكر بن زَرْب (ت 381هـ) فجاء كلامه في سياق دحض التفسيرات والآراء المخالفة، وكان قد صلى في مسجد مقبرة قريش بقرطبة وهو مغرب جدا، فلم ينحرف عن قبلته شيئا، فقيل له في ذلك، فقال: أهل الزيغ والمتبعون في آرائهم في القياس والنظر ينحرفون عن القبلة التي نصبها السلف، وقال: ليس علينا اجتهاد في القبلة التي تقلدها الجيل بعد الجيل وصلُّوا إليها، إنما ذلك علينا في الصحراء وحيث تحتفي علينا القبلة.. وقبله جامعنا التي أقامته قدوتنا وإمام لنا، من حاد عنها بتحريف أو عابها فقد اعترض على أهل الدين بشيء لا يدري هو ولا أحد حقيقته...⁴⁷.

وعن توجيه محراب جامع غرناطة أيام المستنصر يقول المقرئ: "وذكر حضوره- أي المستنصر- لمشاورة العلماء في تحريف القبلة نحو المشرق، حسبما فعله والده الناصر في قبلة جامع الزهراء، لأن أهل التعديل يقولون بانحراف قبلة الجامع القديمة إلى نحو الغرب، فقال له الفقيه أبو إبراهيم: يا أمير المؤمنين، إنه قد صلى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمة من أجدادك الأئمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم، منذ افتتحت الأندلس إلى هذا الوقت متأسين بأول من نصبها من التابعين، كموسى بن نصير وحنش الصنعاني وأمثالهما رحمهم الله تعالى، وإنما فضل من فضل بالاتباع، وهلك من هلك بالابتداع، فأخذ الخليفة برأيه، وقال: نعم ما قلت يا إسحاق، وإنما مذهبنا الاتباع"⁴⁸.

وذكر ابن فرج الجياني (ت 365هـ) في تاريخه أن الفقيه القيرواني محمد بن حارث الحشني (ت 366هـ) حقق قبلة مساجد قرطبة فوجد فيها تغريبا، فامتثلوا رأيه وشرَّفوها⁴⁹، وذهب أبو علي المتيجي إلى أن عالما أندلسيا نعته بحسن التأليف والجددة في التصنيف، ألف كتابا في استعمال الأسطرلاب، غير أنه انتقد عليه خطأه في استخراج قبلة جامع قرطبة لسوء التأويل وسوء الاعتقاد فيها⁵⁰. وذكر صاعد اللغوي في كتابه طبقات الأمم لما تحدث عن الإمام المحدث؛ أبي عبيدة مسلم بن أحمد البننسي، المعروف بصاحب القبلة (ت 295هـ)، الذي طعن في قبلة أهل الأندلس وقال بتبديلها، وكان أبو عبيدة هذا مولعا بالتشريق في قبلته مفتونا بذلك⁵¹، وهو الذي رد عليه ابن عبد ربه (ت 328هـ) في قصيدة ينتقد فيها آراءه، ووجه تم التشريق إلى

⁴⁶ - نفع الطيب 1/ 556 و 562- المعيار المعرب 1/118- إعلام العالم بأن المحراب لأبي سالم، (الوجه: 11).

⁴⁷ - إعلام العالم بأن المحراب لأبي سالم، (الوجه: 9).

⁴⁸ - نفع الطيب 1/561- 562- إعلام الناس بأن المحراب لأبي سالم، (الوجه: 9).

⁴⁹ - ترتيب المدارك 6/266.

⁵⁰ - دلائل القبلة، ص: 165.

⁵¹ - تاريخ علماء الأندلس 2/125.

أصحابه ورماهم بالانحراف، منهم معاوية بن هشام القرطبي المعروف بابن السبانسي⁵²، وقاسم بن موسى الاقشتين⁵³. من ضمن ما جاء فيها⁵⁴:

أبا عبيدة والمسؤول عن خبرٍ يحكيه إلا سؤالاً للذي سألاً
أبيت إلا شذوذاً عن جماعتنا ولم يُصب رأيي من أرجا ولا اعتزلاً
كذلك القبلة الأولى مُبدلةً وقد أبيت فما تبغي بها بدلاً
فإنَّ كانونَ في صنعا وقرطبة بردٌ وأيلولُ يُذكي فيهما الشُعلاً
هذا الدليلُ ولا قولٌ غُررتَ به منَ القوانينِ يُجلي القولَ والعَملاً
كما استمر ابنُ موسى في غوايته فوعَرَ السهلَ حتى خِلتَهُ جَبلاً
أبلغُ معاويةَ المُصغي لقولهما أني كفرتُ بما قالوا وما فعلاً

وحكى القاضي عيسى بن سهل الجياني (ت486هـ) أن ابن حزم "كان ينحرف عن القبلة في صلاته إلى ناحية المشرق، قبلة اليهود والنصارى بالشام، ففلق شيوخ ألمرية وفقهاؤها من ذلك وقالوا لقاضي قرطبة أبي الحسن مختار ابن سهر الرعيني(ت435هـ): إما أن يصلي إلى قبلتنا وإلا فاطرده عن نفسك، لئلا يحتج بك يوماً ما علينا، فأعلمه القاضي بذلك، وكان ذلك سبب خروج ابن حزم من ألمرية إلى دانية"⁵⁵.

وكانت أكثر مساجد الأندلس - كما تقدم - مختلفة في التشريق والتغريب عبر العصور، يتجاذب المصلون في تحويل صفوفها نحو المسار "الصحيح"، كما هو حال محراب الجامع الأعظم بغرناطة. جاء في نوازل المعيار أن الشيخ أبا القاسم بن سراج، قاضي الجماعة ومفتي غرناطة (ت848هـ) سئل عن إمام المسجد الأعظم بغرناطة ينحرف بداخل المحراب لجهة الشرق انحرافاً كثيراً، مع أن المحراب على خمسة وأربعين جزءاً كما هي أكثر المحاريب بمساجد الأندلس، هل يسوغ ذلك للإمام ويلزم المأمومين اتباعه في ذلك وينحرفون معه، أو لا يسوغ له ذلك؟

⁵² - كان متخصصاً في أنساب الأمويين، له كتاب: التاج السني في نسب آل علي، كانت وفاته سنة 298 هـ.

⁵³ - ورد في اسمه خلاف، والغالب على الظن أنه ومحمد بن موسى بن هاشم القرطبي، المعروف بالاقتشتين، المتوفى سنة 307 هـ، أنهما شخصية واحدة، وهو أول من أدخل كتاب سيبويه إلى الأندلس - الوافي بالوفيات 90/5، الترجمة 2099 - نفح الطيب 154/4 - إنباه الرواة 216/3 - بغية الوعاة 253/1.

⁵⁴ - ديوان ابن عبد ربه، ص: 138 - 139 - طبقات الأمم، ص: 64 - 65 - تاريخ علماء الأندلس 125/2.

⁵⁵ - الردود على ابن حزم بالأندلس والمغرب من خلال علماء المالكية، سمير قدوري، ص: 295 - مجلة الأحمديّة العدد الثالث، محرم

وكان من الشيخ أن أفتى بأنه لا ينبغي للإمام أن ينحرف، لأن المحارِبِ نصبت بإجماع العلماء، ثم تعقبه عصره أبو الحسن علي بن موسى اللخمي القرباقي (ت844هـ) الذي ذهب إلى وجوب طلب الاجتهاد في طلب القبلة⁵⁶.

والجدير بالملاحظة أن محارِبِ مغربية قبل الأندلسية قد استوعبت ظاهرة التشريق بالمشاهدة، واتسعت دائرتها لتشمل بعض مساجد البوادي والجبال، حسب رواية أبي علي المتيجي في دلائله⁵⁷، وما ساقه أبو علي صالح المصمودي في رسائله حول القبلة، وغيرهما من علماء الفلك والمواقيت...

5- توجيه المحارِبِ بالمغرب / التمثلات والدلالات

يعود تاريخ بروز هذه الظاهرة في المغرب الأقصى، إلى عهد المولى إدريس الأزهر،⁵⁸ الذي أمر بتوجيه محراب المسجدين الأولين اللذين بناهما في فاس نحو الجنوب،⁵⁹ وحذا حذوه الأختان الفهريتان⁶⁰ في تحديد قبلة جامعي القرويين⁶¹ والأندلس⁶²، ونحن هنا نستحضر مدى قوة الارتباط والروابط بين هؤلاء المشيدين الثلاثة وبين إفريقية والمشرق العربي⁶³.

⁵⁶ - المعيار المغرب 117/1 - 126 - فتاوى قاضي الجماعة أبي القاسم بن سراج الأندلسي، ص: 87 - 102.

⁵⁷ - من علماء أغمات في العصر المرابطي له كتاب دلائل القبلة، كان بقاء الحياة سنة 520هـ، وكتابه مهم في بابه، وهو من المصادر الدفينة لتاريخ المغرب، ومنه استقى أبو علي المصمودي جل ما سطره في كتابه حول القبلة.

⁵⁸ - جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، ص: 81.

⁵⁹ - وكانت قبلة فاس كما وجد بخط أبي العباس أحمد بن غازي مائلة عن عين المشرق إلى جهة الجنوب بإحدى عشرة درجة على طول مكة، وكذلك وضع قبلة الرخامة التي بناها جامع القرويين أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح اللخمي، كان وضعها لها على سمت أربع عشرة درجة من عين المشرق.

وأما القرويين فانحرفوا عن عين الجنوب إلى المشرق بنحو ستة أدرج. وأما جامع الأندلس فبعشرين، فهما داخلتان في جهة المشرق وجاريتان على جهة الجنوب بالاعتبار السابق - إعلام العالم بأن المحراب لأبي سالم، لعبد الله بن حمزة أعياش، (الوجه: 8).

⁶⁰ - الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 290/1.

⁶¹ - نصبت قبلته على نحو قبلة جامع الشرفاء الذي أسسه إدريس بن إدريس بعد مشورة أهل العلم واجتهادهم في ذلك. وتم إزالة الخطبة من جامع الشرفاء سنة 307هـ، وأقيمت بجامع القرويين، وكان أول خطيب به هو أبو محمد عبد الله بن علي الفارسي، بأمر من الأمير حامد بن حمدان الحمداني، عامل عبد الله الشيعي - الأئيس المطرب، ص: 38 - المعيار المغرب 256/1 - الخطابة والخطباء بفاس، ص: 66.

⁶² - كان الناس يقصدون صلاة الجمعة في جامع الأندلس، لأن إقامة الجمعة بعدوة الأندلس سابقة على إقامتها بعدوة القرويين، والجمعة للعتيق.. ولأن قبلة جامع الأندلس أقرب من قبلة القرويين - مرآة المحاسن، ص: 110 - نشر المثاني 242/3.

⁶³ - مقالات الإسلاميين 135/1 - رسائل ابن حزم 84/2 - الحور العين، ص: 211 - الحلة السيرة 52/1 - أعمال الاعلام بمن بويج قبل الاحتلام 38/1.

وإثر التوسعة التي شهدتها جامع القرويين في العهد المرابطي، لاحظ المعدّلون انحراف قبلة جامع القرويين، غير أنهم لا قوا في تصويبها مقاومة شديدة من قبل تيار الفقهاء، الذين اعتبروا ذلك مسًا بالمعالم العمرانية الموروثة عن السلف الصالح ومخالفة للنصوص الدينية، كأهم لا يريدون إثبات الجرح في عدالة السلف والطعن في مآثرهم⁶⁴، والالتزام بالوقوف حيث وقف الناس، وأن يسلكوا سبيل من تقدم، ولا يدخلوا على العوام ما يفسد عقائدهم وصلواتهم⁶⁵.

ومما يقف دليلاً على انحراف محراب القرويين وخروجه عن الجهة الشرعية، النداء الذي جرى به العمل عند إقامة كل صلاة مكتوبة تنبئها للمصلين بالانحراف مع الإمام، وقد جعلوا لمن ينبه على ذلك مرتباً يجري عليه إلى الآن⁶⁶. وتنقل كتب الأخبار الوسيطية؛ الحديث المرفوع الذي ساقه دراسٌ بنُ إسماعيل (ت357هـ) عن شيوخ أجلة في فضل مدينة فاس، وأن أهلها أقوم أهل المغرب قبلة⁶⁷، غير أن هذا الكلام يجعلنا في حيرة، إذ كيف نوفق بين ما جاء في رواية دراس، وبين من يقرر انحراف أغلب مساجد فاس⁶⁸، وأن لدراسٍ مسجداً بحى مصمودة في فاس يقال إن قبلته أقوم قبلة بفاس، وبه كان يدرس الفقه بعد رجوعه من المشرق⁶⁹. وكان أبو عبد الله القصار (ت1012هـ) يقول باختلاق حديث دراس ووضعه⁷⁰، ويروى أن العلامة المهدي الفاسي كان يوجّه الحديث بتأويل القبلة فيه بالإسلام، ويمثل ذلك أوّل الشيخ عبد القادر

⁶⁴ - يساق هنا حديث دراس بن إسماعيل (ت357هـ) في فضل مدينة فاس: "ستكون في المغرب مدينة تسمى فاسا، أهلها أقوم أهل المغرب قبلة.." غير أن الحديث قال بوضعه العلامة أبو عبد الله القصار (ت1012هـ) وحكى أن أقوم أهل المغرب قبلة ومحاربا و قبلتها مطعون فيها، والمستقيم منها قليل بالمشاهدة. وكان قبل أن يلي الإمامة والخطابة بالقرويين يصلي الجمعة بالمدرسة العنانية، لأن قبلتها أقوم من قبلة جامعي الأندلس والقرويين - الجراب الجامع، ص: 150 - مرآة المحاسن، ص: 110 - روض القرطاس، ص: 45 - زهرة الآس، ص: 52 - سلوة الأنفاس 77/1.

⁶⁵ - هذا الكلام نسبه العياشي لابن البناء المراكشي في إعلام العالم بأن المحراب لأبي سالم، (الوجه: 9) .

⁶⁶ - إعلام العالم بأن المحراب لأبي سالم، (الوجه: 8) - شفاء الغليل، (الوجه: 107) .

⁶⁷ - نص الحديث كما هو وارد في بعض المصادر: حدثني ابن أبي مطير بالإسكندرية قال: حدثني محمد بن إبراهيم بن المواز، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس، عن محمد بن شهاب الزهري مرفوعاً: ستكون بالمغرب مدينة يقال لها فاس، أقوم أهل المغرب قبلة وأكثرهم صلاة، وأهلها أهل السنة والجماعة ومنهاج الحق، لا يزالون مستمسكين به، لا يضرهم من خالفهم، يرفع الله عنهم ما يكرهون إلى يوم القيامة - الأنيس المطرب، ص: 37 - جذوة الاقتباس 35/1 - جنى زهرة الآس، ص: 20 - سلوة الأنفاس 78/1.

⁶⁸ - ماضي القرويين ومستقبلها، ص: 42 وما بعدها.

⁶⁹ - جذوة الاقتباس، ص: 196 - الجراب الجامع، ص: 150 - ماضي القرويين ومستقبلها، ص: 100.

⁷⁰ - قال الكتاني: الصواب أنه صحيح من جهة المعنى، ضعيف جداً أو باطل من جهة السند والمبنى - سلوة الأنفاس 78/1.

الفاسي⁷¹. وأما الشيخ أبو المحاسن الفاسي، فكان يمسك عن الطعن في قبلة القرويين ويتورّع في ذكر تفاصيلها، وكان يقول إن انحرافها لأمر غالب⁷²، ومثله الشيخ يوسف الفاسي الذي ينحرف إلى اليسار مع سكوته عمن لا ينحرف⁷³.

وقد تقدمت هذه الظاهرة في المساجد الأول بالمغرب، وهو ما يمكن فهمه من خلال تتبع نماذج ساقها أبو علي صالح المصمودي في رسالته حول القبلة، كالمسجد المنسوب إلى عقبة بن نافع على وادي نفيس ومسجد "شاكر"، وكانت قبلته مغرّبة بيسير عن قبلة المسجد القديم؛ مسجد "إيغيل" بأغمات أوريكّة، ومساجد أغمات بناها أميرها وطّاس بن كردوس الأموي سنة 245هـ، وحضر لبناء قبلة جامعها أبو محمد الأندلسي، وهو من أصحاب مالك⁷⁴ وإلى تلك الجهة بني تلامذة أبي محمد مساجدهم، لأنهم حملوا عنه ما ذكر في كتاب النوادر، فنقلوا قوله في القبلة دون أن ينقلوا فعله فيها، بعد أن رجع عن رأيه الأول. ويذكر المتيجي أن ابن أبي زيد القيرواني، رجع عن رأيه في القبلة، ولم ينتبه لذلك مدة، وبعد امتحانه لوجه محراب مسجده وجدها فاسدة، واستدرك ذلك ودوّنه في رسالته "مجمع الأصول"، من غير أن يبلغ ذلك المغاربة⁷⁵.

وبحلول القرن الهجري الرابع، أصبحت جل المساجد في المغرب توجّه نحو الشرق، تبعاً لما عليه أهل الأندلس الذين فطنوا إلى انحراف المحارب، وكان جامع ابن يوسف بمراكش من أول المساجد التي استفادت من هذا الإصلاح وانخرطت فيه، وذلك بتحويل قبلته نحو المشرق سنة 520هـ، بعد أن كانت قبلته الأولى إلى الجنوب، كما هو حال كل مساجد تلك الفترة تقريباً. وقبل ذلك كان أبو الفضل يوسف بن محمد التوزري، المعروف بابن النحوي (ت 513هـ) ألف كتاباً في استخراج القبلة من المغرب الأقصى، وقد اعتمد فيه على ما عاينه من انحراف في مساجد فاس⁷⁶.

⁷¹ - الجراب الجامع، ص: 149.

⁷² - مرآة المحاسن، ص: 110 - شفاء الغليل، (الوجه: 124).

⁷³ - الجراب الجامع، ص: 150 - مرآة المحاسن، ص: 110 - روض القرطاس، ص: 45 - زهرة الآس، ص: 52 - سلوة الأنفاس 77/1.

⁷⁴ - رسالة القبلة لأبي علي صالح، ص: 44.

⁷⁵ - دلائل القبلة، ص: 175-176 - رسالة القبلة لأبي علي صالح، ص: 47.

⁷⁶ - من ضمن ما جاء فيه قوله "وقد رأيت في مدينة فاس مساجد كثيرة نصبت قبلتها على الحس والحساب، منها مسجد بني زيات ومسجد القلعة ومسجد ابن ميمونة وجامع الأندلس ومصلاهم في الأعياد، وهذه المساجد متقاربة منحرفة إلى جهة المشرق وإلى الجهة التي حققها سحنون وابن عبد الحكم... ولقد كنت أصلي في مسجد بني الزيات وأنحرف فيها إلى ناحية المشرق بكثير، قال: ورأيت أشد هذه المساجد انحرافاً إلى الشرق، جامع الأندلس ومصلاهم في الأعياد، وقد سمعت من يقول إن قبلة جامع الأندلس منقولة من جامع قرطبة.

ويخبرنا أبو علي المتيجي، وهو من فقهاء المرابطين، أن سلطان زمانه عمد إلى الجامع الأكبر في قصره، وكان مبنيا على ما هي مساجد المغرب كلها إلى خط الزوال، فلما صح تغريبه عن حقيقة القبلة هدمه وجدد بناءه⁷⁷، فصار المسجد - كما يقول - قد زال عَوْرَهُ وَحَسُنَتْ صورته⁷⁸.

وكان أبو الطيب عبد المنعم القروي (ت435هـ) زار مدينة سبتة، ولاحظ ما وقع في جامعها الأكبر من الانحراف، حيث كان المصلون ينحرفون بانحراف الإمام، وقال بأنه رأى ذلك عيانا ومشاهدة منهم مرارا⁷⁹. ويتولي الموحدون زمام الحكم، يبدو أن أول إصلاح ديني قاموا به إثر حلولهم بعاصمة المرابطين، كان هو التشكيك في تدين السلطة المنهارة، بتحريف معالمها المقدسة وسن شرائع أخرى بديلة كما رسمها أصحاب التشريع، وامتناعهم عن دخول مراكش إلا بعد تطهيرها عن طريق تشريق مساجدها، كما حدثنا بذلك مؤرخ دولتها وصاحب أخبارها؛ أبو بكر البيدق الصنهاجي، مع أن كان كلامه يعتربه بعض اللبس والغموض، ويناقض أوله آخره وهو يتحدث عن تشريقين؛ تشريق المهدي وتشريق غيره⁸⁰.

ومن ضمن المساجد التي رُدُّوا قبلتها نحو الجنوب؛ جامع ابن يوسف الذي جمع علي بن يوسف على تصويب محرابه أربعين فقيها أو أكثر، فيهم مالك بن وهيب وأبو الوليد ابن رشد الفقيه، فصوّبوا إلى مشارق الاعتدال، وهو ما أجمع عليه علماء المطالع والرصد بعدهم، بعد أن انتقدوا تصويب المرابطين واعتبروه مروقا عن الدين الحنيف، تبطل صلاة من صلى إلى جهتها باتفاق العلماء⁸¹.

يقول الشيخ أبو عبد الله الهزميري، وهو من شيوخ أبي علي صالح صاحب كتاب القبلة: "بنى علي بن يوسف قبلة "جامع السقاية"⁸²، وجعل محرابه في الجدار الذي يلي "القطنين"⁸³، فحولت بعد ذلك إلى الموضع الذي كان فيه الآن، وموضع المحراب الأول معلوم معروف إلى الآن.

قال أبو علي المتيجي: ولو ذكر الفقيه أبو الفضل التوزري مسجد بني الكساد المعمول على الرقاق في أول الرقاق الكولان، الذي غاربه الغربي يقابل أبواب البلاطات الجوفية التي في جامع الأندلس مقابلة مقيمة، رأيت ذلك عيانا وصحيحا يقينا. وكذلك مسجد النحاسين بين الكرتين، الذي قبلته عرض الوادي الجاري بين الدستين، فليس في فاس أشد تشريقا من هذين المسجدين، إلا ما حدث فيها بعدي مما لا أعرفه... - دلائل القبلة، ص: 161-162.

⁷⁷ - دلائل القبلة، ص: 101-115.

⁷⁸ - نفسه، ص: 103.

⁷⁹ - دلائل القبلة، ص: 101.

⁸⁰ - أخبار المهدي، ص: 66.

⁸¹ - يقول التاساقي: "وكل مسجد منها كان مائلا عن مشرق الاعتدال، فهو مائل عن عين القبلة إلى جهة الجنوب، مثل كثير من المساجد القديمة، فإن مالت كثيرا إلى وسط الجنوب، فهذه فاسدة تبطل صلاة من صلى إليها باتفاق" رحلة الوافد، ص: 177.

⁸² - هو مسجد ابن يوسف الذي وسعه علي بن يوسف بن تاشفين سنة 514هـ، وقيل إنه من بناء والده، ويسمى في بعض المصادر بجامع المرتضى، لأن الخليفة الموحد المرتضى أعاد بناءه سنة 654هـ.

ثم قال: سألت عن ذلك جملة من أشياخ ذلك الموضع وفقهاء مراکش الذين أدركناهم، كالفقيه أبي عبد الله محمد بن علي قاضي الجماعة⁸⁴، وذكر أنه إلى المحراب الأول يصلي، إذا لم يخف من يشنع عليه، وذكر لي أن شيخه أبا الحسن بن القطان⁸⁵ يعمل مثل ذلك. قال: فراقبت مطالع الشمس فوجدته مبنيا إلى مطلع الشمس في الاعتدال، ورأيت مساجد غيره التي بنيت في دولة لمتونة، ولم يتغير محرابه إلى الآن⁸⁶. وتمدنا الدراسات الأثرية بأسماء بعض المحارِب التي تم توجيهها شطر الجنوب، كمسجد أغمات الذي اكتشف مؤخرا من قبل فريق من الباحثين الأثريين المغاربة والأمريكيين، وهو منحرف بنحو 136 درجة شمالا⁸⁷، ومسجد سجلماسة، المكتشف من قبل البعثة الأمريكية شهر يونيو 1988، ومستواه الأول سابق عن الفترة المرابطية، وقد حوله المرابطون بنحو خمس درجات⁸⁸.

ويصف التاساقي محراب الجامع الذي شيده مهدي الموحدين محمد بن تومرت في "تينمل" قائلا: "وكانت قبلته للجنوب حينئذ خارجة عن سمت مكة بتسعين درجة، وتعجبت من ذلك الانحراف، مع أن العلماء المعاصرين للوقت الذي أسس فيه كلهم من نقاد الوقت وصادقها، منهم ابن زهر الأيادي (ت 524هـ) وابن العربي، والقاضي عياض، والمازري، وابن رشد، والسهيلي، وابن مغيث وغيرهم⁸⁹.

وفي هذا الإطار نسوق كلاما نفيسا عن وضعية المساجد الموحدية، ورغم ما نلمسه فيه من التورية واللمز تجاه سلطة الموحدين، فهو تعبير عن موقف الفقهاء المعارضين الذي وجدوا صعوبة لا حد لها في الإفصاح عن رأيهم في شأن القبلة، وحسب أبي علي المتيجي، وهو من فقهاء الفترة، فإنه "لا يدري جهد الآباء والأجداد في تحسين ما وقع فيها من الفساد، فإذا أقام راغب في دينه لأداء صلواته، فبحث عن حقيقة قبلته، لم يهتد فيها سبيلا ولا وجد إليها دليلا"⁹⁰.

⁸³ - المركز التجاري لبيع القطن، ويعرف بدرب القطانين بقلب المدينة العتيقة في مراکش.

⁸⁴ - قاضي الجماعة، أبو عبد الله محمد بن علي بن يحيى، المعروف بالشريف، ولي قضاء الجماعة بمراكش في عهد يعقوب بن عبد الحق المريني، كانت وفاته بمراكش سنة 682هـ.

⁸⁵ - أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن القطان، نزيل مراکش، الفقيه المحدث الحافظ، توفي سنة 628هـ.

⁸⁶ - رسالة القبلة للمصمودي، ص: 30.

⁸⁷ - المعلومة مستفادة من الأستاذ عبد الله فيلي، وهو أحد المشرفين المغاربة على حفريات موقع أغمات، التي انطلق ما بين سنة 2005 و2014 برعاية مؤسسة أغمات الأثرية وجامعة فاندربلت الأمريكية.

⁸⁸ - ينظر مقال ذ. رونالد ميسي، ضمن كتاب المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط، منشورات كلية آداب الرباط.

⁸⁹ - رحلة الوافد، ص: 175. (بصرف)

⁹⁰ - دلالات القبلة، ص: 47.

ويرى أبو الحسن الركاكي (كان بقيد الحياة سنة 633هـ)⁹¹ في كلام ساقه في كتاب الصلاة من شرحه على المدونة أن " أغلب المساجد مُستقبلة، إذ لو كانت على خلاف الاستقامة لما وَسِعَ من كان فيها من العلماء السكوت والتمادي على ترك الإنكار، ووجب عليهم التضافر والتظاهر على هدمها ونقض أساسها، حتى يُحوَّلوا قبلتها إلى القبلة المحمدية، وهذا إذا لم يمكنهم إقامة القبلة على وجهها مع قيام حيطانها وبنياتها؛ لأن ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك واجب عليهم، ولاسيما إذا كان ذلك مما يؤدي إلى إضلال الأمة قرناً بعد قرن. فإن لم يتهيأ لهم فعل ذلك؛ إما لما يخافون من هيجان الفتنة وفساد الأمة، حتى تستباح المحارم وتفسد الأموال وتسفك الدماء وتضطرب الدهماء، أو يكون المسجد المذكور في خطة ذي ولاية، ومن له يد قاهرة وسطوة ظاهرة، يُخشى الاصطلاء بناره، ولا تؤمن بوادره، سقط عنهم فرض الفعل، وتعيّن عليهم الإنكار باللسان والبيان لعامة المسلمين... وهذا الذي ذكرته إنما حَكَمْتُهُ على مَحَاكَ النَّظَرِ واعتبرته، غير أن الشرح تجده صحيحاً لا وسم فيه، ولعل قائلًا يقول: أَطَبَّتْ في هذه المسألة وَخَرَجَتْ فيها عن مقصود الكتاب، ولعمري إنه لقليل في جنب ما يحتاج إليه من الشرح والبيان، وهذا حكم الصلاة إلى الكعبة⁹².

6- ابن تومرت والتشريع

غير بعيد من العبيديين والأندلس، نجد إشارات من بعض النصوص التاريخية تفيد أن الفقيه السوسي مهدي الموحدين، كانت له رحلة إلى الأندلس ومصر والشام والعراق، ولا شك أنه قد اتصل هناك ببعض التيارات الفكرية والمذهبية وتأثر بعلمائها ودعاتها، ثم عاد إلى المغرب بعد تحصيله العلم النظري⁹³. وتحدث المؤرخون عن فترة انقطاع ابن تومرت هناك، تزامنت وخلافة المستظهر بالله (487-512) حيث غلت الأقطار بالباطنية واستولوا على مراكز القرار.

⁹¹ - اشتهر الشيخ الركاكي بكتابه مناهج التحصيل في شرح المدونة، غير أننا لا نعلم كثيراً عن حياته سوى بعض النصف القليلة جداً، ويبدو أنه عاش في تلك الفترة التي انخرط أهل سوس في دعوة واحد من رجالاتها المتمردين ضد الموحدين، يدعى عبد الرحمن القحطاني والمعروف بابن المهر، وقد استطاع أن يجمع حوله العديد من الأتباع والمريدين وجندهم ضد السلطة الموحدية، وقد امتد تمرده إلى أطراف جزولة ومنها رركاكة التي شهدت نهايته سنة 601هـ. ولا يبعد أن يكون العلامة الركاكي من جملة العلماء الذين غادروا رركاكة بعدما تزايد عليهم ضغط الحكام، واختار الهجرة نحو مدينة "لكست" المنيع وسط جبال الأطلس الصغير، إثر الحملة التي شنّها الحكام الموحدين على المالكية وكتبهم، وقد توعدوا من خالف أمرهم بالعقوبة الشديدة، وأوقعوا المخن بذوي الفروع وقتلهم وضرهم بالسياط وألزمهم الأيمان المغلظة... على أن لا يتمسكوا بشيء من كتب الفروع - المعجب، ص: 184 - 232 - العبر 449/6.

⁹² - مناهج التحصيل 343/1 وتم تصحيح النص بناء على مقابلة نسخ خطية.

⁹³ - المهدي بن تومرت، عبد المجيد النجار، ص: 63 وما بعدها.

وتشير المصادر التاريخية كذلك إلى أن ابن تومرت شد الرحال نحو المهديّة في عهد يحيى ابن باديس (501-509)، ثم أقام بالمنستير مع جماعة من الصالحين مدة،⁹⁴ وإثر عودته منها صحب معه رجلا يعرفه المصامدة بالشرقي،⁹⁵ ويمكن اعتبار لقب رفيقه هذا، مؤشرا يزيد من فرضيتنا في فهم سياقات المرحلة، وإشارة قوية ذات صلة بموضوع دراستنا.

لا شك أن هذه الوقفات سيكون لها أثر على تدين مهدي الموحدين ونشاطه السياسي والمذهبي فيما بعد، فكان أول إصلاح قام به الموحدون لما آل الأمر إليهم، هو امتناعهم عن سكنى مراکش إلا بعد تطهيرها⁹⁶، والذي لا يكون كما يقول البيدق، إلا "بهدم جوامعها"⁹⁷ من أجل تشريقها وتحريفها عن القبلة وإمالتها إلى المشرق نحو القبلة المستقيمة، التي لا عوج فيها ولا تحريف لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، والتشريق والتحريف لغيرها من اليهود وغيرهم"⁹⁸. وهنا يبدو التناص واضحا مع الفقه الظاهري، وهو موقف يضارع ما أورده القاضي ابن سهل الجياني في حق ابن حزم، وقد تقدم أنه كان ينحرف عن القبلة في صلاته إلى ناحية المشرق، قبله اليهود والنصارى بالشام⁹⁹. وهنا يمكن الاستعانة بكلام للمقريزي، يشير إلى أن المسلمين بعد تمكنهم من مصر لم يشيدوا المساجد منذ الوهلة الأولى، بل اتخذوا كناس النصارى مساجد، وهي مبنية على استقبال المشرق واستدبار المغرب، زعما منهم أنهم أمروا باستقبال مشرق الاعتدال لطلوع الشمس منه، فجعل المسلمون أبواب الكنائس محاريب عندما غلبوا عليها وصيروها مساجد، فجاءت موازية لخط نصف النهار، محرفة عن محاريب الصحابة انحرافا كثيرا، يحكم بخطتها وبعدها عن الصواب¹⁰⁰. وفي

⁹⁴ - وكان على حد قول معاصره ابن القلانسي، قد أكره على مغادرة المهديّة، بعدما أراد أن يحمل أهلها على بناء قصر (رباط) وفق مذهبه - ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى حمزة ابن القلانسي، ص: 291.

⁹⁵ - تؤكد المصادر نعتة بالشرقي، مع أنه ينحدر من تملالت ببجاية، كان اسمه الأول يرزيكن بن عمر، ثم سماه ابن تومرت بعبد الواحد، ويعرف عند الموحدين بالشرقي - أخبار المهدي، ص: 14، 18، 34 - المعجب، ص: 181.

⁹⁶ - يقول المراكشي صاحب الحلل: وبقيت مراکش ثلاثة أيام لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج، وأبى الموحدون دخولها لأن المهدي كان يقول لهم: لا تدخلوها حتى تطهروها، فسأل الموحدون الفقهاء عن ذلك، فقالوا لهم: تبون أنتم مسجدا مكان ذلك فبنى الخليفة عبد المومن بدار الحجر مسجدا آخر جمع فيه الجمعة، وشرع في بناء المسجد الجامع، وهدم الجامع الذي كان أسفل المدينة، الذي بناه علي بن يوسف - الحلل الموشية، ص: 144.

⁹⁷ - علينا ربط الهدم الذي مارسه ابن تومرت في حق المساجد بما يراه من أن الإمام لا يكون إلا معصوما من الباطل لهدم الباطل، لأن الباطل لا يهدم الباطل - أعز ما يطلب، ص: 229.

⁹⁸ - أخبار المهدي، ص: 66. (بتصرف).

⁹⁹ - تنظر الإحالة رقم: 55 من هذا البحث.

¹⁰⁰ - المواعظ والاعتبار بذكر خطط الآثار 262/2.

إشارة من أدبيات المرحلة، أن المرابطين كانوا يقفون موقفا عدائيا من حركة الموحدين، وينعتون زعيمهم المهدي بأنه " يمتنع من الصلاة على أهل القبلة"¹⁰¹.

ونجد في رياض النفوس وفي معالم الإيمان أن أبا إسحاق السبائي(ت356هـ) وكان شديد العداوة للعبيديين، كان يقول وهو يشير بيده إلى عسكر أبي يزيد الخارجي: هؤلاء من أهل القبلة، ثم يشير إلى عسكر بني عبيد الله ويقول: هؤلاء ليسوا من أهل القبلة، فعلياً أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من هو على غير القبلة¹⁰².

وإذا سلمنا بهذه المعطيات، فإن فرضية تشرُّق ابن تومرت تظل ثابتة، من دون أن نعلم الدعم النقلي الذي اعتمد عليه، مع أننا لا نجد في أي فصل مما وصلنا من كتبه ورسائله حديثاً عن التشريق، بالرغم من تطرقه للقبلة كأعز ما يطلب في قبول صلاة المسلم¹⁰³.

لكن هل كونت هذه الظاهرة إرثاً راسخاً لدى خاصة الناس بعد ابن تومرت، أم هي حالات معزولة عند خاصة الخاصة؟

وإذا كان الأمر كذلك، كيف عبروا عن التشريق ومارسوه، وهل كان تخليهم عنه يتزامن مع تخلصهم من المهديوية آخر أيام دولتهم¹⁰⁴، أم كانوا يكتمون فعله ويسرون أمره، على غرار من تشرُّق قبلهم من العبيديين وغيرهم؟¹⁰⁵

أم أن ابن تومرت اكتفى بتشريق المحارِب بدل أن يدعو كافة الناس إلى ممارسة التشريق؟
توحي بعض المتون المناقبية إلى حضور الظاهرة وتجدرها في فكر الموحدين حتى بعد رحيل زعيمهم المهدي، ففي إشارة من التادلي أن "محمد بن تميم الزناتي تكلم يوماً مع أبي إبراهيم إسحاق الهزرجي السكتاني(ت581هـ) في شأن القبلة وقد شرَّق، فقال له الهزرجي: لي منذ كذا وكذا سنة ما كبرت إلا وأنا أعين الكعبة،"¹⁰⁶ وقبل ذلك حظي التشريق بعناية أحد منفعدي المشروع التومرتي وهو تلميذه وخليفته عبد

¹⁰¹ - رسائل موحديّة 49/1 - نظم الجمال، ص: 67.

¹⁰² - معالم الإيمان 77/3 - رياض النفوس 339/2 - سير أعلام النبلاء 155/15.

¹⁰³ - أعز ما يطلب، ص: 105.

¹⁰⁴ - الاعتصام، ص: 187.

¹⁰⁵ - طبقات علماء إفريقية للخشني، ص: 78.

¹⁰⁶ - التشوف، ص: 242 - مرآة المحاسن، ص: 111 - شفاء الغليل، (الوجه: 124) - الإعلام للمراكشي 59/3 - السعادة

الأبدية 215/1.

المومن الذي قام بتنزيل دعوته على أرض الواقع، حين هدم كل المساجد التي شيدها المرابطون من أجل تشريعها و"تصحيح" قبلتها¹⁰⁷.

وإذا كانت قضية التشريك في إفريقية ذات بعد مذهبي وتتجاوز الرصد والمطالع، فإنه في الغرب الإسلامي يبقى تفسيرها مضمرا غير معلن عنه في أدبيات السياسة الشرعية، ولا تسعف المباحث الفقهية بالإفصاح عنه، إلا ما كان من مهدي الموحدين، الذي نظن أنه كان يقصد بهذا الاعتقاد تأسيس رؤية تنسجم مع ما جاء به أصحاب التشريك، وتكوين أرضية لترسيخ اختيار مذهبي معين سوف يبني عليها أحقيته في الإمامة فيما بعد، وكانت جل آرائه العقدية توافق إلى حد ما معتقد أصحاب التشريك وتعكس مذهبهم، إذ كان يوافقهم في القول بمجموعة من الأصول كالإمامية، والقول بالعصمة، والمهدوية، والتقية، والجفر والحدثان¹⁰⁸، ووجوب الوصية للإمام، ونحو ذلك من العقائد التي تؤكد أنه " كان يبطن شيئا من التشيع، غير أنه لم يظهر منه للعامة شيء"¹⁰⁹.

وانطلاقا مما سبق يتضح أن سياسة ابن تومرت ما هي إلا امتداد طبيعي للتيار "البحلي" الذي تؤطره المرجعية الشيعية، وكان سائدا في بلاد مصمودة إلى حدود القرن الهجري الرابع¹¹⁰، وهي مرحلة يلفها غموض نسبي...

7- القبلة في المغرب بعد الموحدين

عاد التجاذب في أمر القبلة من جديد إلى ساحة التدين المغربي، وتجددت المقاومة وبلغت أشدها مع تشييد السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق لمدرسة الصغارين بعدوة القرويين سنة 678هـ، بعدما أثار محرابها نقاشا حادا بين الفقهاء والطبقة الحاكمة، إذ صار الناس يصلون في مكانين متجاورين بمحرابين مختلفين في الواجهة¹¹¹، إثر ذلك تم تكليف المعدل محمد بن الحباك بتوجيه محرابها، غير أن تصويبه جاء مخالفا لتوجيه محراب جامع القرويين، مما أثار فضول جمهور فقهاء فاس فرفعوا شكواهم إلى السلطان أبي يوسف المريني، الذي دعا إلى عقد مناظرة في الموضوع واستفتاء شيوخ الإسلام بالمشرك العربي.

¹⁰⁷ - أخبار المهدي، ص: 66.

¹⁰⁸ - المعجب، ص: 180 - مقدمة ابن خلدون، ص: 578 وما بعدها.

¹⁰⁹ - المعجب، ص: 188.

¹¹⁰ - لا يستبعد أن يكون البجليون قد حملوا الناس على التشريك في الصلاة كما حملوهم على "حي على خير العمل" في الأذان

والإقامة - المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص: 161 - ينظر حول الشيعة البجلية في مجلة كلية الآداب الرباط، العدد

المزدوج 37-38 - 2017/2018.

¹¹¹ - يعقوبية؛ المدرسة المرجع للمدارس العتيقة في المغرب، ص: 5-15.

وكان الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن يحيى بن مطهر الوريثي، صاحب الطرر على المدونة (ت 683هـ) من أبرز المناصرين لتصحيح محراب القرويين، فظهرت له مواقف مخالفة لما عليه فقهاء فاس، واحتدم الخلاف بينهم وشكوه إلى السلطان المريني الذي أمر بنفيه هو ومن معه من مناصريه¹¹². وكان الشيخ علي بن أحمد الحريشي (ت 1143هـ) قد أرخ لهذه القضية، وذكر أن سلطان وقته "بنى مدرسة الحلفا المعروفة بالصقارين، جعل فيها مسجدا وجه لإقامة محرابه ابن الحباك، واجتهد في شأنه بما له من الخبرة في علوم الهيئة، فظهرت له المخالفة بين محراب المدرسة المذكورة في محراب القرويين مخالفة قوية، فبلغ الخبر الأمير وجمع علماء فاس وسألهم كيف العمل في محراب القرويين؛ جامع معظم المسلمين، هل تجوز قبلته إلى جهة قبلة المدرسة المذكورة؟ فاجتمع رأيهم على عدم تحويله، وأنه صادف جهة القبلة ولو ضعفت، فاجتمع مألهم على إبقاء المحراب على ما كان به، مع التنبيه بعد إقامة الصلاة إلى الانحراف إلى جهة يساره، وجعل لمن ينبّه على ذلك مرتبا يجري عليه إلى الآن¹¹³.

وقد تكررت القضية وبرزت من جديد مع الوطاسيين في فاس، على يد الفقيه المؤقت أبي زيد التاجوري، (ت 960هـ) حين رفع إلى السلطان أحمد الوطاسي كتابا يطرح فيه انحراف مساجد فاس عن سمت الكعبة، مما دفع بالسلطان الوطاسي إلى مراجعة أبرز فقهاء الحضرة، فقام بالرد عليه كل من مفتي فاس، أبي عبد الله اليسيتي (ت 959هـ)، وعبد الوهاب الزقاق خطيب جامع الأندلس (ت 961هـ) ردا مستفيضا شنعوا عليه وأغلظوا القول فيه، من غير أن يقدموا الحجة بأدلة واقعية ودقيقة¹¹⁴، ونظرا للمكانة الخاصة التي يحظى بها الفقيه محمد بن علي الدرعي لدى السلطان محمد الشيخ السعدي، ناشده التاجوري ملتسما منه التدخل لحسم الموقف وإظهار الحق، غير أنه فشل في إقناع السلطان لمكانة خصمه وعلو جاهه¹¹⁵.

112 - المقصد الشريف، ص: 111.

113 - إعلام العالم بأن المحراب لأبي سالم، (الوجه: 8) وقد نقل هذا الكلام عن إرشاد السالك لشرح مقفل موطأ مالك للحريشي.

114 - أكتفى الشيخان الزقاق واليسيتي بالنظر في القضية على مستوى الشكل دون أن ينفذا إلى جوهرها، غير أن أبا زيد التاجوري تصدى لكلامهما بالنقض ودحض مزاعمهما حسب ما اقتضته الصنعة من خلال رسائل ثلاث؛ الأولى سماها بتنبية الغافلين عن قبلة الصحابة والتابعين، وحرر رسالة أخرى يستفتي فيها علماء مصر، سماها ورقات في معرفة القبلة والأوقات، والرسالة الثالثة هي التي رفعها إلى الفقيه محمد بن علي الدرعي يشكوه موقف فقهاء فاس في الموضوع - تنظر التفاصيل في الحركة الفكرية في عهد السعديين 290/1-297.

115 - قال عنه رفيقه الزقاق: كان طبعه أنه إذا قال الشمس تطلع من المغرب، وقال الناس كلهم، إنما تطلع من المشرق، لم يرجع عن قوله. وكان معروفا بطلبه لنفاسة الرئاسة وحب العلو والجاه وعدم الإنصاف - دوحة الناشر، ص: 10-12-56.

وممن انتبه وتبَّه على هذا الإشكال من علماء هذه الفترة؛ الشيخ عبد الله الكوش، (ت 960هـ)، وكان يجذر من الصلاة في جامع القرويين لتفاحش انحراف قبلته نحو الجنوب¹¹⁶، كما قوبل هذا أيضا بإنكار الشيخ أحمد بن علي البوسعيدي، الذي كان قد استفتي في المسألة وكتب رسالة في الموضوع، دون فيها مواقف وآراء بعض علماء ومعدلي الأقطار الإسلامية، وقد سئلوا عن نصب محارِب أرض المغرب ما بين المشرق والمغرب، مستقبليْن جهة الجنوب¹¹⁷.

وكان مفتي فاس وفقهائها في عصره؛ العلامة محمد بن أحمد المسناوي (ت 1136هـ) قد أفتى ببطلان صلاة إمام له إمام بنف التعديل، يؤمُّ الناس في مسجد محرابه منحرف عن سمت القبلة باتفاق المعدلين، بل إنه اعتبر تمادي الإمام في ذلك خروجاً من الملة والدين¹¹⁸.

وذكر أبو الحسن الدادسي (ت 1094هـ) أنه أدرك خطيب جامع القرويين؛ الشيخ علي بن هارون المطغري (ت 951هـ) ورآه ينحرف في صلاته لمشرق الشمس في فصل الشتاء بمحراب القرويين، وكذا روى عن شيخه الماواسي، ولما سئل عن ذلك قال: هذا هو الحق الذي لا شك فيه، إلى أن قال: وأما شيخنا المؤقت؛ أبو عبد الله محمد الصغير ابن الحاج، فكان يصرح ببطلان صلاة من صلى بها، ويقول: نصبت من غير اجتهاد من الأئمة¹¹⁹. وكان الشيخ البوسعيدي السوسي يتحرج كثيرا لعدم تحريف بعض الأئمة بمساجد فاس،¹²⁰ وحكى أن الشيخ زروق كان يجلس بالقرويين والناس يصلون، بدعوى مخالفة محرابه لمحارِب المسلمين¹²¹. وحذا حذوهم الفقيه المؤقت أبو حامد الفاسي (ت 1052هـ) الذي ألف رسالة يشنع فيها على قبلة مسجد القرويين ومسجد الشرفاء، ولما علم السلطان المولى إسماعيل العلوي بذلك سنة

¹¹⁶ - دوحه الناشر، ص: 110- سلوة الأنفاس 206/3- الحركة الفكرية 296/1.

¹¹⁷ - وكلهم أفتوا بوجود سد المحارِب الفاسدة بالأدلة القاطعة، منهم من أهل الفلك: رجب ميقاتي جامع الأزهر، ومحمد الهندي، ومحمد بن أحمد السنهوري، ومحمد الشامي، ومحمد الشويخ، ومحمد الهائم، ومحمد بن عبد الله الهيثمي، وعبد الحق الحنفي ثم أبو زيد التاجوري صاحب السؤال، وكلهم من علماء الفلك والميقات.

كما تضمنت رسالته أقوال فقهاء المذاهب الأربعة وآرائهم في المسألة، يتصدرهم محمد بن حسن اللقاني المالكي ومحمد بن إبراهيم التتائي المالكي، وناصر بن حسن اللقاني المالكي، ومحمد بن عبد الرحمن الخطاب المالكي، ومن الشوافع محمد بن عبد الله بن علي الهيثمي، وأحمد بن أحمد بن حمزة الرملي. ومن الأحناف أحمد بن يونس وعلي بن ياسين الطرابلسي، ومن الحنابلة أحمد بن النجار الفتوح.

¹¹⁸ - النوازل الكبرى للوزاني 251/1- شفاء الغليل، (الوجه: 142-143).

¹¹⁹ - الجراب الجامع، ص: 149، الذي نقله من إكمال فتح المغيث في شرح اليواقيت للدادسي - شفاء الغليل (الوجه: 130).

¹²⁰ - شفاء الغليل (الوجه: 142).

¹²¹ - نشر المثاني 242/3.

1132هـ، أمر بتجديد مسجد الشرفاء وتصحيح قبلته، فاجتمع لذلك علماء فاس وقضاؤها¹²² واتفق رأيهم على أن وجهة نظر الفقيه أبي حامد الفاسي صائبة، غير أنها لا توجب هدم محراب المسجد المذكور اعتباراً للمصلحة العامة.¹²³

ولم تنفصل مساجد مكناس في عهده عن باقي الأرجاء، فقد كان لعلمائها دور هام لا يستغنى عنه في هذا الباب، حيث كانوا يولون عناية خاصة لعلم الهيئة والمشتغلين به، اعتماداً على النظر والصناعة الهندسية. وفي سنة 1122هـ وعلى هذا المنهاج، أمر السلطان العلوي المولى إسماعيل أربعة متخصصين في علم الهيئة والتعديل¹²⁴ لتحديد قبلة محراب مسجد "الأنوار" بالمدينة العتيقة، فنزلوا على أرض الواقع مستعملين النظر بطرق علماء الفن والأسطرلابات والدائرة ومقاييس الشمس¹²⁵.

وفي مراكش أورد التاساقي في رحلته كلاماً في القبلة ودلائلها،¹²⁶ للعلامة المؤقت أبي عبد الله المرغتي (ت 1089هـ) مستوحى من رسالة في شأن محارب بعض مساجد مراكش، ربطت بينه وبين بلديته العلامة البوسعيدي المتقدم، ومن فوائدها: "فإني أخشى أن تكون صلاتنا إلى بعض تلك البلاد على ما ترى هنالك من الكُتبيين والقُصبين والقرويين هنا وغيرها مما نصب إلى تلك الناحية.¹²⁷ وكان العلامة محمد بن العربي الأدوزي ألف هو الآخر رسالة في قبلة مراكش، يباحث فيها ويناقش ما لاحظته من انحراف بعض مساجدها عن القبلة"¹²⁸.

وعن بعض مساجد تارودانت ينقل أبو زيد البعقلي (ت 1006هـ) صورة عن وجهة محاربها قائلاً: ولا يخفى أن أكثر المساجد القديمة بهذه البلاد، مغرب عن جهة القبلة. وأما المساجد الحديثة القريبة العهد، فهي موافقة للجهة في الغالب لكن مع الاختلاف في سُموتها، ولذلك لم أر في الحضرة المحروسة الحمديّة تارودانت مسجداً أكثر انحرافاً عن السمّت من الجامع الأعظم العتيق، ومع ذلك لم يخرج عن الجهة، وجدته في نحو

¹²² - وهم: الشيخ ابو عبد الله المسناوي، وأبو علي الحسن بن رحال المعداني، وأبو عبد الله ميارة الحفيد، وأبو عبد الله محمد بن حمدون بناني وولد عمه أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بناني وأبو الحسن علي الشراطي، ورئيس المؤقتين العياشي الخلطي، وأحمد بن سنون، وأبو عبد الله العربي قصارة مؤقت منار القرويين - نشر المثاني 241/3 - الجراب الجامع، ص: 149 - 150.

¹²³ - الجراب الجامع، ص: 149.

¹²⁴ - وهم: محمد بن عبد الرحمن المرابط، والعربي بن عبد السلام الفاسي، وحسين الكامل، ومحمد بن سليمان العوي - المنزع اللطيف، ص: 305.

¹²⁵ - المنزع اللطيف، ص: 305 - إتحاف أعلام الناس، 129-217-101/1.

¹²⁶ - رحلة الوافد، ص: 176-177.

¹²⁷ - العوائد المزنية 2/341.

¹²⁸ - روضة الأفنان، ص: 198؛ الهامش: 132 - المعسول 5/180 - 185 - سوس العالمية، ص: 204.

ست وثلاثين درجة من الربع الشرقي الجنوبي، وبقي له أن يخرج إلى الجهة الجنوبية تسع درجات، وقد مال عن السمت كثيرا إلى ما بين مطلع القلب ومطلع الشّولة، وجامع "القصبه" أقرب منه إلى السمت، وجدته في نحو ثلاث عشرة درجة من الربع المذكور، وهذا داخل في المشارق الشتوية، والأول خارج¹²⁹.

والملاحظ أن هذا الاتجاه هو السائد كذلك في بعض القبور القديمة قبل القرن الهجري الخامس في جزولة، وقد لاحظ العلامة محمد المختار السوسي أنها: "كانت كلها مائلة إلى الجنوب، وحين كان قبر الشيخ وكّك إلى المشرق، ظننا أنه هو نفسه ممن أيد هذه الفكرة الجديدة إذ ذاك في القبلة، فاقبر كذلك حين توفي نحو 445هـ ثم اتبعه علي بن يوسف، ثم إن الموحدون عاكسوا أولا هذه الفكرة على عادتهم في مضادة اللمتونيين في كل شيء، فأسسوا المحارب إلى الجنوب"¹³⁰. وفي هذا نكتة تاريخية تحققت مع العلامة البوسعيدي(ت 1046هـ)، الذي قام شخصيا بحفر قبره بمقبرة الشرفاء الطاهريين، فجاء مخالفا في الاتجاه لباقي القبور الأخرى، وذلك بسبب ما لاحظته من انحراف في بعض مساجد فاس¹³¹، الشيء نفسه قام به شيخ الجماعة بفاس، الفقيه أبو عبد الله المسناوي(ت 1136هـ) الذي حفر هو الآخر مرقده بيده بروضة "سيدي العايدي" بفاس قبل موته بثلاث سنوات¹³². ولا يبعد أن يكون هذا الدافع نفسه هو الذي جعل الشيخ أبا الحسن القابسي يتحرى القبلة إذا ترحم على والديه بباب تونس، فكان يحول وجهه دبر القبلة منحرفا إلى الشرق¹³³. وهذا يؤكد بالفعل رسوخ عملية تصحيح القبلة وانشغال الناس بها في إفريقية والمغرب على السواء.

- خاتمة:

إذا كانت قضية تحريف القبلة كما أسلفنا مشرقية الهوى والأصول، فإن مثار الغلط فيها في نظر بعض المتتبعين ناشئ عن سوء فهم للتأويل الفلسفي من جهة، ولتأويل للنص الحديثي "ما بين المشرق والمغرب قبلة"¹³⁴ وحمله على العموم من جهة أخرى، رغم أن الحديث خاص بالمدينة والشام وما على سمت ذلك من البلاد، وليس لسائر البلدان، وهو ما ذهب إليه التاساقي¹³⁵ وغيره من علماء التوقيت. وقد سبق

¹²⁹ - قطف الأنوار من روضة الأزهار، (طبعة حجرية) - إعلام العالم بأن المحراب لأبي سالم، (الوجه: 15) - شفاء الغليل، (الوجه: 116).

¹³⁰ - خلال جزولة 76/1-77- قبائل هلاله، ص: 140.

¹³¹ - الحركة الفكرية 296/1- سلوة الأنفاس 124/2.

¹³² - نشر المثاني 278/3- الإعلام للمراكشي 28/6.

¹³³ - رياض النفوس 100/1- معالم الإيمان 171/1.

¹³⁴ - ينظر دلائل القبلة لأبي علي المتيجي، فقد فصل في المسألة، ص: 131 وما بعدها، وكذلك المقرزي في الخطط 258/2.

¹³⁵ - حسب التاساقي، وهو من علماء الهيئة(ت بعد 1150هـ) فإن مرد انحراف المحارب الأولى، يعود إلى فهم الفقهاء لحديث:

لأبي علي المتيجي أن عبر عن هذه الثنائية بسوء التأويل وسوء الاعتقاد¹³⁶، غير أن بعض المعدلين لا يرتاحون لبساطة هذا التفسير، فلمحوا إلى أن منشأ الخلاف أساسه التجاذب الحاصل بين الفقهاء والمعدلين، واعتبروا أن المحول لهم في الاشتغال بأمر القبلة وتحديد وجهتها هم علماء الفلك دون الفقهاء¹³⁷، لأن مهمة الفقيه أن يعلم وجوب استقبال القبلة لا معرفة سمتها، لافتقاره إلى علم الهيئة واستخراج الجهات، ولهذا في نظر هؤلاء يقدم علماء الفلك في تحديد القبلة على الفقهاء، لأن كل صنعة لها أربابها، وأرباب القبلة هم علماء الفلك لا غير¹³⁸. وفي هذا الصدد يخبرنا ابن أبي زيد القيرواني أن "كل من لا يعرف مطالع الشمس ومغارها ومطالع النجوم ومساقطها، فلا يجوز له بنیان المساجد¹³⁹. ويرى الإمام سحنون أن "كثيراً من الناس يجتهدون في بنیان مساجدهم ويخطئونها، لأن جلهم ليس لهم بالنجوم خبرة"¹⁴⁰، خلافا لابن البناء وهو من أكبر المعدلين في العصر المريني، الذي يرى أنه "لا يلتفت لأهل الحساب في هذا، ولا عبرة بهم لعدم ورود الشريعة المحمدية بطريقتهم في استخراج القبلة، ولا يجب الالتفات للسمت المطلوب عند أهل الآلات باتفاق¹⁴¹.

ومن المنظور الفلسفي، وحسب قراءة للمفكر العربي جورج طرابيشي، "فإن هاجس تحديد سمت القبلة، هو من أهم الأسباب الرئيسية لتطور علم الفلك في الحضارة العربية الإسلامية. ومن ثم، فإن التشريق في اعتقاده هو تعبير عن ورع ديني وتدقيق علمي في آن معا، وما كان له أن يكون فيصلا بين السنة والشيعه، كما لو أن الكعبة ليست قبلة مشتركة لهم جميعا، وكما لو أن دأب أهل السنة من الأندلسيين "التغريب" بدل التشريق في صلاتهم"¹⁴².

"ما بين المشرق والمغرب قبلة"، على أنه محمول على عمومه، مع أن الحديث محمول على الخصوص من أهل المدينة والشام لا غير، لأن موقع مكة ليس للمغاربة في ناحية الجنوب، وإنما هو إلى المشرق بإجماع العلماء - رحلة الوافد، ص: 82.

136 - دلائل القبلة، ص: 165.

137 - يذهب الشيخ المسناوي إلى أن استقبال القبلة في الصلاة شرط، ومتى ظهر انحراف المحراب عن القبلة وجب الانحراف عنه إليها، ويرجع في معرفة انحرافه إلى المؤقتين العارفين بالأدلة، ومن خالفهم فيما قامت عليه الأدلة بعد علمه بذلك بطلت

صلاته - النوازل الكبرى للوزاني 251/1.

138 - شفاء الغليل، (الوجه: 32).

139 - نفسه، (الوجه: 112).

140 - نفسه، (الوجه: 113).

141 - إعلام العالم بأن المحراب لأبي سالم، (الوجه: 11).

142 - وحدة العقل العربي، ص: 165.

ومهما كانت الذرائع والمسوغات فإن مسألة القبلة في مختلف أطوارها لم تكن سوى محطة من محطات الصراع المذهبي، السياسي أحيانا الذي طبع الحياة الدينية، بدءا بالتأسيس فمرحلة التصويب ثم إعادة التصحيح والتوجيه، علاوة على حملها لخطاب يسكنه ما هو فلسفي وسياسي ومعماري في نفس الوقت.

قائمة المصادر والمراجع

- أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين أبو بكر بن علي الصنهاجي، المكنى بالبيدق، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، طبعة دار المنصور بالرباط 1971.
- الإسلام في المغرب الكبير من الفتح إلى وفاة ابن رشد الحفيد، دراسة مقارنة في التشكيل والانتشار والاستمرار، المبروك المنصوري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سوسة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية 2009.
- أعز ما يطلب، محمد بن تومرت، تقلبم وتحقيق عبد الغني أبو العزم، الطبعة الأولى 1997، دار ويلي للطباعة والنشر مراكش.
- إعلام العالم بأن المحراب لأبي سالم، عبد الله بن حمزة أعياش (مخطوط خاص).
- افتتاح الدعوة، القاضي نعمان، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع وديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، الطبعة الثانية 1986.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، أحمد بن محمد ابن عذاري، تحقيق: كولان وليفي بروفنصال، طبعة ليدن 1948.
- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ابن عذاري، تحقيق بشار عواد ومحمود بشار عواد، سلسلة التراجم الأندلسية (8) دار الغرب الإسلامي تونس، طبعة 2013.
- تاريخ علماء الأندلس، أبو الوليد ابن الفرضي، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي تونس، الطبعة الأولى 2008.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب، الطبعة الأولى 1983.
- التشوف إلى رجال التصوف، ابن الزيات التادلي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب الرباط 1997.
- التفكير والتكفير في الفكر الأصولي، بثينة الجلاصي، رؤية للنشر والتوزيع تونس، الطبعة الأولى 2020.
- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، أحمد ابن القاضي، دار المنصور الرباط، 1973.
- الجراب الجامع لأشتات العلوم والآداب، عبد الصمد بن التهامي كنون، د.ت.
- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلف غير معلوم، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء.
- الحور العين، أبو سعيد نشوان الحميري، تحقيق وتعليق كمال مصطفى، مطبعة السعادة مصر 1948.
- دلائل القبلة، أبو علي المتيجي، تحقيق نصيرة عزرودي، الطبعة الأولى 2017، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر.
- ديوان ابن عبد ربه، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1979.
- ذيل تاريخ دمشق، أبو يعلى حمزة ابن القلانسي، طبعة بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين 1908.
- ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب الحنبلي، صححه محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية 1952.
- رحلة الوافد، لحظات من تاريخ أدرار ن درن وسوس في القرن 12 الهجري، عبد الله بن إبراهيم التاساقتي، تحقيق: علي صدقي أزيكو، كلية الآداب القنيطرة، الطبعة الأولى 1992، مطبعة المعارف الجديدة الرباط.
- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، تحقيق بشير الكوش، دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة الثانية 1994.
- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقيروا من العلماء والصلحاء بفاس، محمد بن جعفر الكتاني، تحقيق عبد الله الكتاني وحمزة الكتاني ومحمد بن علي الكتاني، دار الثقافة الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2004.

- شفاء الغليل قبله صاحب التنزيل، العربي بن عبد السلام الفاسي (مخطوط خاص).
 - طبقات الأمم، صاعد الأندلسي، الطبعة الكاثوليكية، بيروت 1912.
 - طبقات علماء إفريقية، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الخشني، بعناية محمد شنب، دار الكتاب اللبناني، د.ت.
 - العبر، عبد الرحمن ابن خلدون، بعناية خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت 2000.
 - فتاوى قاضي الجماعة أبي القاسم بن سراج الأندلسي، أبو القاسم بن سراج، تحقيق أبو الأحناف، السلسلة الأندلسية، رقم: 7 أبو ظي الإمارات العربية المتحدة طبعة سنة 2000 .
 - القبلة في الأندلس والمغرب الأقصى، تحقيق مونيكا ريوس، أبو علي صالح المصمودي، كلية الآداب جامعة برشلونة، معهد مياس فالكرورة للتراث العلمي العربي 2000.
 - كطف الأنوار من روضة الأزهار، عبد الرحمن البعقلي (طبعة حجرية).
 - ماضي القرويين ومستقبلها، عبد الحي الكتاني، ضبط وتعليق عبد المجيد بوكاري، الطبعة الأولى 2006 دار الكتب العلمية بيروت.
 - مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، أبو حامد محمد العربي الفاسي، دراسة وتحقيق محمد حمزة الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الحد.
 - معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، الدباغ والتنوحي، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي مصر المكتبة العتيقة بتونس، 1972.
 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة مصر الطبعة الأولى 1949.
 - المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أحمد بن يحيى الونشريسي، خرجه مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، الطبعة الأولى 1981، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
 - المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، أبو عبد الله البكري، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، دون تاريخ، وطبعة ليدن، مطبعة بريل 1872.
 - مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح المدونة وحل مشكلاتها، علي بن سعيد الركاكي، تحقيق أبو الفضل أحمد بن علي الدمياطي، مركز التراث الثقافي المغربي ودار ابن حزم.
 - نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، الحسن بن علي ابن القطان، دراسة وتحقيق محمد علي مكي، الطبعة الأولى 1990، دار الغرب الإسلامي.
 - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وأخبار وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، أحمد بن محمد المقرئ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت 1968.
 - النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى، المهدي الوزاني، قابله وصححه عمر بن عباد، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب، الطبعة الأولى 2000، مطبعة فضالة المحمدية.
 - ولاية الفقيه وإشكالية السلطة السياسية في الفقه الشيعي، المنطلقات الفكرية، الأسس الاستراتيجية؛ الآثار الأمنية، جلال الدين محمد صالح، مكتبة القانون والاقتصاد الرياض الطبعة الأولى 2015.
- مجالات ودوريات:**
- الردود على ابن حزم بالأندلس والمغرب من خلال علماء المالكية، قدوري سمير- مجلة الأحمدية العدد الثالث، محرم 1424.
 - حول نعت الدعوة الفاطمية بالتشريق، عمر بن حمادي، حويليات الجامعة التونسية، عدد: 39 السنة 1995.

- التشريق مقالة أصولية عند الإسماعيلية، بشينة الجلاصي، مجلة أصول الدين، العدد: 20 السنة 2016.
- التشريق وآليات المواجهة السنية في القيروان، علي دراجي، مجلة الحياة الثقافية وزارة الشؤون الثقافية والمحافظلة على التراث، مارس 2009، العدد: 201.
- اليعقوبية؛ المدرسة المرجع للمدارس العتيقة في المغرب، إبراهيم أنوار، ضمن كتاب المدارس العتيقة بالمغرب؛ دور القبائل في التدبير والتمويل، تنسيق محمد أيت حمزة ومبارك أيت عدي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعرفة الجديدة، الطبعة الأولى 2015.